قذائف تزلزل عرش المنصور

تاقت نفس أبو جعفر المنصور يومًا أن يرى إنسانًا يًحبه ويقدم إليه النصيحة دون مجاملة أو زيف أو نفاق مما يرى حوله من المتزلفين المداهنين، فأخذ يُقلب في ذاكرته عله يعثر عن الشخص المنشود، فتذكر صديقه القديم الذي صار اليوم ملء السمع والبصر، ولكنه لم يكن مثله من طلاب الدنيا، وإنما من طلاب الآخرة.! إنه العالم الزاهد العابد التابعي (عمرو بن عبيد) الذي رغم انتسابه للمعتزلة، إلا أن الجميع أقر بطهارة نفسه، وسمو روحه وترفع زهده وصفاء خِلاله، ولم لا.. وقد كان من أصحاب الحسن البصري وتلامذته المقربين، حتى أنه قال فيه من فرط إعجابه به كلامًا بليغًا معجزًا ، لقد قال: عمرو بن عبيد رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد لأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرًا أشبه بباطن منه، ولا باطنًا أشبه بظاهر منه.!

بل قال فيه الإمام الذهبي (هو الزاهد العابد)[1]

وقال عنه حفص بن غياث : (ما لقيت أزهد منه، وقيل أنه حج أربعين سنة وبعيره يقاد معه فيركبه الفقير والضعيف والمنقطع ، وكان يُحيي الليل كله بركعة واحدة، فعل ذلك غير مرة في المسجد الحرام)[2]

---

١ – سير أعلام النبلاء

٢ – مقالات الاسلاميين

عرف عمرو طريق العلم والزهد في شبابه، وتعلم مبكرًا، أن أخطر شيء على الطريق الذي اختاره لنفسه هو القرب من أصحاب الجاه والنفوذ، الذين يملكون الدنيا ويتمرغون في غرورها، وهو الإيمان الذي أحس عليه بالخطر حينما جاءته دعوة المنصور ليمثل بين يديه، فحار للأمر وتساءل: لماذا يريدني هذا الرجل وقد طلقت دنياه؟ ما هو الشيء المشترك الذي يجمعني به حتى يرسل في طلبي؟ لقد كانت تربطني به صداقة قديمة في عصر الامويين، فما الذي يجبره وهو في ظل هذا الملك العتيد أن يتذكرني ويرسل إلي.؟!

كل هذه الأفكار دارت في رأس عمرو، وكادت أن تورثه حيرة مؤرقة، حتى قفزت عليها أفكار أخرى، أوحى بها يقينه و إيمانه وصلابته، وأوعزت بها أخلاق العالم الثائر والعابد الزاهد، الذي لا يرهب غير الله، ولا يخشى فيه لومة لائم.. بل دفع إليها شعوره بالمسؤولية عن الأمة، ومقامه كعالم يقود الناس ويدافع عن قضاياهم، ويسعى إلى مصالحهم، ويواجه ما يحيق بهم من أخطار.!

ولعلك هنا أيها القارئ تستسهل الأمر، فيخيل إليك أن عمرو لا يقابل مشكلة ولا يواجه خطرًا، فحتى لو أنه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ورد المنصور في عنف فلن يصيبه أي أذى، لأن أبو جعفر يحترمه ويوقره ويحبه ويشتاق لرؤيته.. ولعلك ترجع إلينا لأننا لم نزيدك بيانًا بشخصية أبي جعفر، حتى تعرف أن عَمرًا سيواجه الجبال الشم والصخور الصم.. فأبو جعفر طاغية العباسيين وأشهرهم سفكًا للدماء وقتلا للنفوس، والبطش بكل من تسول له نفسه أن يعارض أو يخالف، أو تسول له نفسه أن يقول الحق بحضرته.. لم يقتل أعداءه ومخالفيه فقط، وإنما امتدت يده لتقتل أصدقاءه وأعوانه، و بني عمومته من أبناء علي كرم الله وجهه، ثم انتقل

بعدها لقتل بني العباس أنفسهم.. كان يقتل كل من يتوجس منه شرًا، أو يشك فيه مجرد شك يسير.. حتى أنه قام بإقصاء ولي عهده عن الحكم، بإفك و افتراء ليمهد العرش لولده المهدي.. وقف عمه يومًا وقال له، يا أمير المؤمنين لقد هجمت بالعقوبة، حتى كأنك لم تسمع عن العفو فقال: لأن بني أمية لم تبل رممهم، وآل علي لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة ولا نتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو.!

هذا إذن هو الرجل الذي سيواجهه (عمرو)، ولكن مهما يكن هذا الرجل، ومهما وصل إليه من ظلم وعتو.. فإن عمرًا لا يخشى أحدًا غير الله، ويهوى الموت كما يهوى الحياةأصحاب الحياة.. ولن يرده عن قول الحق أحدًا فليغضب من يغضب وليسخط من يسخط.. فرضاء الله فوق هامات الجميع.. إن عمرًا لم يكن مجرد عالم زاهد ينزوي في محرابه يعبد الله ويذكره صباح مساء، و إنما كان ذلك العالم الثائر لحقوق الناس، والمدافع عن حقوقهم، بل كان المجاهد الذي يعشق الحق وينصف الحقيقة مهما كلفته من عناء وبلاء.!

ويصل عمرو إلى دار الخلافة، وما أن علم المنصور بوصوله حتى أمر بإدخاله، وما أن دخل حتى استقبله بالبشر والترحاب وقال له: عظني يا أبا عثمان.! ولم يمهله عمرو في هدوئه، حتى صب عليه قذائف الحق، و أثار على مُلكة رياح النصيحة العاتية، فاندفع يقرأ قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)[1] وكرر

---

[1] -الفجر :٦-١٤

الآية الأخيرة في تحدٍ جرئ عنيد، ففهم المنصور ما يعني، وملكته رعشة مترنحة، فتساقطت من عينه دموع الخشية والندم.!

وواصل الرجل موعظته، ثم صاح في شجاعة منقطعة النظير، وقال له بصوت الحق العالي: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها، واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك، إنما كان في يد من كان قبلك، ثم أفضى إليك، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك، وإني لأحذرك ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة يا أمير المؤمنين.!"

وهنا لم تتعود حاشية الخليفة أن يروا من يتجرأ عليه، فقال أحدهم: رفقًا بأمير المؤمنين فقد أتعبته اليوم.. فقال له: عمرو: من أنت؟ فقال أبو جعفر: أولا تعرفه يا أبا عثمان؟ فقال: لا، وما أبالى ألا أعرفه! فأجاب المنصور: هذا أخوك سليمان بن مجالد، فضحك عمرو متهكمًا وقال: هذا أخو الشيطان، ويلك يا ابن مجالد! خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين، ثم أردت أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته!

يا أمير المؤمنين: إن هؤلاء اتخذوك سلمًا لشهواتهم، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب، فاتق الله فإنك ميت وحدك، ومحاسب وحدك، ومبعوث وحدك، ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئًا.! {ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون}[1]

فقال المنصور: يا أبا عثمان، أعنى بأصحابك فأستعين بهم دون هؤلاء.. فرد الرجل في قوة: يا أمير المؤمنين أظهر الحق يتبعك أهله!

ثم أخذ عمرو ببصره يقلب بين الحاضرين فأبصر شابًا عليه دلائل الترف والإمارة و الجاه، وتوقع باستشفافه الملهم أن ولي العهد، فسأل المنصور: من هذا الفتى يا أبا جعفر؟ فرد الخليفة: هذا ابني المهدي ولي عهد

---

[1] - ابراهيم: ٤٢

المؤمنين، فقال عمرو: والله لقد سميته اسما ما استحقه بعمل، وألبسته لبوسًا ما هو من لبوس الأبرار، ومهدت به أمرًا أمتع ما يكون به أشغل ما تكون عنه.!

تضايق الخليفة من صراحة العالم المجاهد الداعية. ولما انتهى اللقاء، شعر المنصور بحرج شديد من موعظته التي لم يكن يتوقعها في يوم من الأيام، لأنه رجل مختلف عن كثير من المتملقين الذين يزينون له الباطل، ويجملون له الخطأ، ولم يملك المنصور إلا أن يعبر عن حقيقة ما يجيش في صدره فقال وهو يترنم: كلكم طالب صيد.. كلكم يمشي رويد.. غير عمرو بن عبيد.!